وعصفور من الشرق أيضا...

الأســـتاذ دريني خشبة

لو لم يتعمد الأستاذ صاحب الرسالة فيضع هذه التحية الرقيقة التي بعث بها الأستاذ الجليل محمد كامل سليم بك إلى الأستاذ الحكيم قبالة أولى مقالاتي عن « قضية اليوم » ، ولو لا ما جاء في هذه الكلمة من نفي عداوة الأستاذ الحكيم للمرأة ... لو لا ذلك كله لآثرت إغلاق هذا الباب الذي اضطرني إلى كثير من القسوة والمرارة في التعبير — وإن كنت على حق كل الحق في جميع ما ذهبت إليه ، وما أيدته بكلمات الأستاذ الحكيم نفسه مما لا يُعقل أن ينكره أو يماري فيه . فقد أثبت من صميم شهرزاد للأستاذ الحكيم — وذلك في المقال الثاني — أنه عدو للمرأة في كل زمان ومكان ما في ذلك شك ، وأثبت أنه ينظر إليها نظرة تسفل دائماً ولا تعلو أبداً ، ويعدها مصدراً للشرور التي تحيق بالعالم وتجعله جحيماً لا يطاق ، وسواء أعاملها الإنسان كما عاملها شهريار الأول الذي قتل زوجه ورجم روحها بأرواح العذارى البريئات من بعدها ، أو عاملها شهريار الثاني (الديوث !) من الصفح عن أوزارها ، أو الغض عما تأتي وما تدع من تلك الأوزار ، فالمرأة هي المرأة في الحالين في نظر الأستاذ الحكيم ، وهذا هو رأيه فيها ، الذي أبداه في « القصر المسحور » وادعى التوبة منه ، والأنابة مما ذهب بصدده إليه ... لكن الأستاذ كامل سليم نفى عنه تلك العداوة للمرأة ، وبرأه من الموجدة عليها « كما يزعم الزاعمون » بل ذهب إلى أبعد من هذا ، فاتهم الأستاذ الحكيم بأنه « صديق المرأة والمنافح عنها ! » وقال ذلك بعد أن فرغ من قراءة « عصفور من الشرق » التي لم أكن أن أتعرض لها بخير ولا بشر لمّا كنت أوثر أن أحصر فيه موضوع « قضية اليوم » وقصرها على ما يتصل بشهرزاد وبأحلام شهرزاد ... ولكن ما الحيلة ، وقد حدثني الأستاذ الزيات قبل نشر المقالين فلمّح في حديثه إلى أنه متعمد أن يضعهما جنباً إلى جنب مبالغة منه في تأكيد ما للرسالة من حرية في النشر أو حرية في الرأي أو حرية في النقد ... لست أدري أي الحريات الثلاث أراد ، ولعله قد أرادها جميعاً

وبعد ، فما هي قصة عصفور من الشرق ؟ وهل تؤكد تلك القصة شخصية الأستاذ الحكيم التي تظهر جلية في أكثر قصصه ، خصوصاً مسرحية « شهرزاد » ؟ وسؤال ثالث : هل الأستاذ الحكيم في تلك القصة عدو للمرأة كدأبه أم هو صديق للمرأة كما يتهمه الأستاذ الجليل كامل سليم بك ؟

١ — أما قصة عصفور من الشرق فتتلخص في أن الطالب الشاب « محسن » كان يشدو العلم في باريس ، وأنه كان يسكن مع جماعة باريسية لاحظت عليه ما يلاحظ عادة على المغرم المبتدئ « ولا سيما إن كان شرقيًّا » من شرود وانقباض وقلق ، فإذا عرفت منه أنه يحب شجعته وعلمته أن باريس لا تعرف التردد في الحب وأن قارورة من العطر أو باقة من الزهر تكفي لغزو قلب أية باريسية .

٢ — أما من هي التي شغفت أخانا محسناً حبا ، فهي « جابية أو محصلة ، أو عاملة » أو ما شئت فسمها ، من عاملات دور الصور ، كان الفتى محسن يهواها ، بل يتعبدها ، وكان منصرفاً ، مذ أحبها ، عن كتبه ، بل عن مدرسته ، لا يبرح واقفاً بالقرب من الشباك الذي تعمل فيه حتى تفرغ من عملها ، فإذا قال لها

وأفنيتها ، واستعين على إسماعهم بمكبرات الصوت التي بثت في نواحيها ، وكان فيهم صفوة من الأزهريين الذين يشغلون المناصب في الإدارة العامة وفي الكليات وفي غيرها ، وألقى فضيلة الأستاذ الكبير محاضرته فكان يقاطع بالتصفيق الحاد والهتاف المدوي في أثنائها . ولما انتهى منها هنأه فضيلة الأستاذ الكبير مفتي الديار المصرية على ما وفق إليه من وصف حالة الأزهر العلمية وسياسته التوجيهية ، وعانقه فضيلة الأستاذ الكبير وكيل مشيخة الأزهر مقبلاً إياه بين عينيه على ملأ من الناس أجمعين ، وعلا التصفيق والهتاف لهذا المظهر الرائع ، وأبى الطلاب إلا أن يحملوا فضيلة المحاضر على أعناقهم إلى فناء الكلية فتم لهم ما أرادوا ، وكان يوماً في الأزهر عظيما !

ولكن ما هي هذه المحاضرة التي استقبلها الأزهر : شيوخه ورؤساؤه وطلابه هذا الاستقبال العظيم ؟ وماذا قال فيها صاحبها حتى ملك هذه القلوب جميعاً ؟ سؤال تسألونه أيها القراء الكرام وحق لكم أن تسألوه . ولتعلمن نبأه بعد حين .

محمد محمد المدني

« عمى مساء يا آنسة » ردت عليه التحية بإغلاق الشباك فى وجهه ... ثم ما زال يترصدها حتى يعرف مسكنها فيهجر مسكنه ويأوى إلى الفندق الذى تسكنه سوزى — وهذا هو اسمها — وتكون غرفته فوق غرفتها ... أما أول التعارف فقد كان « خبطة عشواء ! » إذ ادعى السيد محسن الإفلاس فكان أن أدّت عنه سوزى حسابه للغسّالة ... ولا ندرى كيف دفعته وهى لا تعرفه ... يُسأل عن هذا فن الأستاذ الحكيم ... أما كيف رد الثمن فقد أهدى إليها ببغاء وضعه فى قفص — لعله من جريد لا من ذهب ، وعلقه فى حبل ثم دلاه من نافذته إلى نافذتها — فكان تعارف وكان شكر ... وكان حب . وكانت سهرات وكان (أنس) ... وكان لا يصحو الأخ العزيز (العاشق الشرق) محسن إلا على رنين قبلات سوزى ، وربما كان لا ينام إلا على رنين قبلاتها كذلك ... وكانت مقابلات يُنضّرجها دم الغيرة الشرقية إذا تأخرت سوزى عن ميعادها ... وإنهما لفى مطعم يوماً ينعمان ويأكلان ويشربان ويعبثان ، إذا شاب يدخل فجأة فتذهل سوزى ، وتكاد الأرض تسوخ من تحتها ، وإذا سر قلبها يطفر فجأة من عينيها ... وإذا العاشق الشرقي يعرف كل شىء ... إنه ليس وحده فى هذا القلب المزدحم ! إنه طفيلى ... لقد ركع فى محراب هذا القلب عشاق معامید من قبل .

هذه هى القصة ، لا ينقصها إلا خطابان أحدهما من محسن ، والآخر رد من سوزى عليه . وإليك الآن هذه المقتطفات :

١ — نظر محسن إلى سوزى مرة فسألته :

— لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟

— أصبت ، أرى الآن أنى على خطأ ، ما الذى يعنينى من أمر حياتك أنت ؟ ما أنت إلا « حلم » يحيا فيه ... الآخرون ...

— ومن هم الآخرون ؟

قالتها فى ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبث بصفحات كتاب ...

٢ — ولما فاز محسن بالوصول إلى فتاته وأخبر صديقه الفرنسى (أندريه) بذلك ، ابتسم الفرنسى وقال له :

— أرأيت أنها فتاة ككل الفتيات ، وعاملة كآلاف العاملات ؟ تلك التى أسكنتها قصراً من قصور ألف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها إلى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها . آه أيها الصديق ، اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطراً مما كنت تتصور ، وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة لا تحتاج إلى كل هذا الوقت ، ولا إلى كل هذه الخيالات والتأملات ؟

فأحس الفتى إحساس من يهوى إلى الأرض ، وكأن قيم الأشياء فى نظره قد تضاءلت ، وكأن الحياة نفسها قد تجردت من غطائها فبدت كتمثال مصبوب من السخف . وشعر محسن بفراغ فى مادة نفسه لا يدرى بعد اليوم ماذا يملؤه . .

(حدث هذا والحب فى إبانه قبل أن يقع ما فصل بينهما)

٣ — وانظر إلى هذه الروح المتجهمة فى العبارة التالية :

التفاحة هى التفاحة ، ولكنها تفاحة أرض جديدة ! تفاحة الأرض ... حلوة لكن داخلها الدود ! (والعياذ بالله !)

٤ — ويقول بعد ذلك فى الصحيفة نفسها :

« ولم يكن محسن يطيق إبطاء سوزى خمس دقائق عن موعدها ، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبتسم لأحد معارفها وهى تحنى رأسها بالتحية ، ولم يعد يرى صورتها فى أحلامه ممتزجة بأنغام الأنترمتزو — و — رقصة الفرانديول ، ولكنه يراها فى نومه تعانق رئيسها هنرى الذى عرف منها بعض أخباره ، أو يراها تقبل شاباً زنجياً تلك القبلات الملتهبة ، فينهض منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق جسدها بأسنانه ! ! »

فهل رأيت إلى شهريار الدموى كيف يتنبه فى أعماق محسن ؟ ومحسن هنا هو الأخ الكريم الأستاذ توفيق كما لا يخفى ... توفيق الشاك الذى تملأ رأسه أشباح العبيد والزنوج وقبلاتهم الملتهبة ، وغدر شهرزاد التى لا تشبع من عبدها ولا تريد أن تشبع منه ... وهل رأيت كيف ينهض شبحه « محسن » منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق جسد سوزى بأسنانه ؟ !

٥ — وقصة الملكة سميراميس التى هى صورة فاجرة من صور شهرزاد الآثمة التى تخيلها الأستاذ الحكيم : « يوم دعت أسيرها إلى ليلة من ليالى النعيم ، مهدت فيها الفرش ، وأقيمت الموائد ... وتلاقت الشفاه ... إلى أن لاح الصباح ، فتغير وجه الملكة الجميل ، ووضع الأسير فى الأغلال ، ومشى به إلى الموت ، وهو ذاهل ما زالت فى رأسه بقية من نشوة الليل ... ، ... ، ولكن ملكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن غير ذلك . كل شىء عندهن مستتر مقنّع « فهى » تضع على وجهها ذلك القناع الحريري الأسود الذى يلبس فى المساخر ... إلى آخر المهزلة ... ...

٦ — ثم إليك هـذه النفس السوداء المريضة المتشائمة : « ... لا ينبغي أن نبني شيئاً جميلاً فوق هـذه الأرض !! هذه الأرض المتغيرة المتحركة برمالها ومائها وهوائها !! »

ويرى بعد ذلك أن يكون البشر جميعاً في كل زمان ومكان زهّاداً كزُهّاد الهنود ، زهاداً مضعوفين مسلولين لا يذوقون إلا حبات من الأرز كي تصعد نفوسهم وترتفع إلى الملأ الأعلى ... يريد أن يكون الناس كلهم — أو المصريون على الأقل — من « مقاطيع السيدة زينب » ! لأن مقاطيع « الست » وحدهم هم المتصلون بالسماء ... والفضل في ذلك لروح الزهد والتقشف والقول « النابت !! »

ولن يصغي شرق واحد إلى الأستاذ الحكيم ؛ فقد شبع الشرق من الفقر وما جرته عليه فلسفة الفقر والقناعة والتقشف من قبول الذل والخنوع وموت روح المقاومة التي لا توجد إلا في الأقوياء بدناً وروحاً في وقت معاً ... ودينا الحنيف هو دين القوة الذي لا يعرف الرهبانية ولا التصوف الهندي الذميم ، وهو الدين الذي أحل لنا مناعم الحياة حلالاً طيباً ، وفرض الإفطار على الصائم المحارب كما حرم الجوع الذي يضر الجسم ، وقام على محاربة الفقر بإطعام الطعام على حب الله من أوسط ما يُطْعِمَ الناس وبالزكاة والتعاون المنظم الذي يمحق الفاقة ، ولا يأذن لمقطوع واحد من « مقاطيع » الست الطاهرة بالوجود في هذا الوجود ! . وأما قول المسيح عليه السلام : « ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله » فقد قصد به ما قصد إليه الرسول الكريم حين قال : « اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً واحشرني في زمرة الساكين » فقد قصد المسيح أن يحض الأغنياء على عمل الخير ، كما قصد الرسول أن يخفف ألم الفقر في نفوس الفقراء — وليس يعقل أن الرسولين الكريمين كانا يريدان انتشار الفقر في العالم وتحكم الفاقة في الوجود

٧ — أما هذه الثورة على أوربا ، التي هي جميلة رشيقة ذكية ، لكنها خفيفة أنانية لا يعنيها إلا نفسها واستعبادها غيرها ، فهي ثورة أحدثتها في نفس محسن النكسة التي جرها عليه غرامه الخائب ، فلو أنه نجح في هـذا الحب ، لكانت أوربا في نظره شيئاً آخر

٨ — ولست أدري ما هذا الذي انزلق إليه الأستاذ الحكيم — في معرض الطعن على أوربا — من القذف في حضارتها ، وفي ضرورة ما تراه أوربا من وجوب نشر التعليم ومحاربة الأمية والإزراء على الديمقراطية ؟ ما هـذا ؟ أيريد أن يظل جمهور العالم جاهلاً لا يقرأ ولا يكتب ؟ أيريد لهذا الجمهور أن يظل مسكيناً ذليلاً مستعبداً ؟ أيريد أن يقوم الطغاة في كل فج يسيمون الجماهير سوء العذاب مما نرى أثره في ألمانيا وإيطاليا واليابان ؟

ولكن ، لا علينا من ذلك فليس من أجله كتبنا هذا المقال

فهذه القطعات التي أثبتناها هنا تدل على أن الأستاذ الحكيم هو في « عصفور من الشرق » كما كان في « شهرزاد » من حيث رأيه في المرأة ومن حيث عداوته لها ... ومن حيث أنها ملك مشاع للجميع ، ويكذب من يقول بوفائها وعفافها وإخلاصها لرجل بعينه وإن يكن هذا الرجل هو زوجها ؛ فهي حلم يحيا فيه الآخرون ... وأن وقوعها بين ذراعي أي إنسان مسئلة بسيطة لا تحتاج إلى وقت وخيالات وتأملات وأن التفاحة هي التفاحة ... تفاحة أرض جديدة ... تفاحة الأرض ... حلوة ... ولكن داخلها الدود ، وأن شخصية شهريار الدموي الفظيع الناقم كانت دائماً تتقمص روح الحكيم كلما أبطأت عليه حبيبته فيراها فيما يرى النائم وهي تقبل شابا زنجياً تلك القبلات الملتهبة فينهض منزعجاً مضطربا يود لو يمزق جسدها بأسنانه ... ولست أدري إن لم يكن مؤلف شهرزاد هو نفسه مؤلف عصفور من الشرق قلباً وقالباً كما يقولون فلماذا ساورته أشباح العبيد الغلاظ والزنوج الذين يقبلون تلك القبلات الملتهبة وهو كان يحب في باريس ... باريس اللعوب المفتان ... ولم يكن يحب في جزائر واق الواق ولا في بلاد نيام نيام ولا بين قبائل الشيلوك والدنكا ... إن لم يكن توفيق الحكيم مع سوزي في باريس هو توفيق الحكيم مع شهرزاد في بغداد ، أو في فارس أو الهند لست أدري ، فلماذا ذكر هذا الزنجي الذي لم تكن تؤثر عليه شهرزاد أحداً ، وكانت لا تشبع منه ولا تريد أن تشبع منه ، وكانت تريده أسود غليظاً ... ولماذا كان ينهض من نومه منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق جسد سوزي الجميل الغض بأسنانه (والعياذ بالله !) إن هذه خبيثة من خبيثات العقل الباطن برزت في غفلة من غفلات وعي توفيق الحكيم ففضحت رأيه في المرأة ، وأكدت مذهبه فيها على صفحات عصفور من الشرق ، كما تأكد هذا المذهب في شهرزاد من قبل ... وما هذا الذي ربط بين الحلم الذي يحيا فيه الآخرون ، وبين سهولة وقوع أية امرأة بين ذراعي